على اقتراحات الذين كفروا بإنزال آيات وغير ذلك فيقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأتِى بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أتظنون أن الرسول أى رسول يستطيع أن يجيب إلى ما طلب منه من قوم كلما شاءوا شيئاً صنعه ؟ ، الرسول هذا بشر من البشر مبعوث من الله لا يستطيع أن يفعل شيئاً فى هذا الكون إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، فالكون كون الله وليس كون الرسول ، والله هو الفعال الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ أى ما صح له ولا استقام وليس فى وسعه : ﴿ أَنْ يَأْتِى بِآيَةٍ ﴾ مما تقترحونه ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أى بمشيئة الله سبحانه وتعالى ومشيئته مرتبطة بحكمته ..

وسواء كانت هذه الآية التى تطلبونها آية حسيّة مثل الآيات التى جاء بها موسى من العصا واليد ،ومثل الآيات التى جاء بها عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله وغيرها ،ومثل آية صالح الناقة ، وغير ذلك ، أو كانت الآية التى تطلبونها آية تنزيلية من آيات القرآن تريدونها مكان آية ، أو تريدون حكماً مكان حكم ، سواء كانت الآية كونية أم تنزيلية ، فلا يستطيع الرسول أن يأتى بها إلا بإذن الله ، وهذا ما قاله الرسل عامة لأقوامهم حينما طالبوهم أن يأتوا بسلطان مبين ، ومع أن الرسل قد جاء كل أحد منهم بآية ، إلا أن أقوامهم لا يكتفون بآية واحدة بل يريدون أخرى وأخرى وأخرى ، لأن المتعنت لا يقف عند حد ، قالت الرسل : ﴿ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه ، وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [إبراهيم : ١١] فهذا موقف الرسل عامة : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِى بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ .

معنى (لكل أجل كتاب) :

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ الأجل هو المدة المضروبة المحددة من الزمن المعروفة بدايتها ونهايتها مثل أجل الإنسان ، مدّته التى قدّر الله أن يعيشها فى عمره ، وكما جاء فى قصة سيدنا موسى مع الشيخ الكبير الذى يقال : إن اسمه شعيب ، قال الشيخ : ﴿ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ، سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ، أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ

قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ ، وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص : ٢٧ ، ٢٨] وقد جاء فى الحديث أنه قضى أوفى المدّتين وأبرهما (١) ، كرمًا منه فقضى عشر سنوات .

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ كل مدّة من المدد وكل وقت من الأوقات له كتاب ، أى أمر كتبه الله تعالى وقدّره مناسب لهذا الوقت ، واقتضته الحكمة الإلهية التى تضع كل شىء فى موضعه وتظهره فى زمانه ، علم ذلك من علمه ، وجهله من جهله، فالله سبحانه وتعالى لا يخلق شيئًا باطلاً ،ولا يفعل شيئًا عبثًا ، ولا يصنع شيئًا اعتباطًا،كما قال أولو الألباب الذين يتفكرون فى خلق السماوات والأرض : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾ [آل عمران : ١٩١] وكما قال الله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾[المؤمنون : ١١٥] وقال : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : ٣٦] فكل شىء يمضى وفق الحكمة الإلٰهية . ومن ذلك أن كلّ مدّة من الزمن لها حكمها الإلٰهى الذى يختص بها ويناسبها ، سواء عرف الناس ذلك أم لم يعرفوه .

ومن ذلك: الآيات التى تقترح،فقد يجيب الله فينزلها وقد لا يجيب ، والذى يفعل ما تقتضيه الحكمة هو الله عزّ وجلّ ، وهم طلبوا الآيات الحسّية والخوارق الكونية التى كانت لبعض الأنبياء من قبل ، ولكن الوقت تغيّر والزمن تغيّر، والله سبحانه وتعالى أعطى كل رسول من الآيات ما يناسب زمنه ، فى هذا الأجل المعين. فمثلاً كان المناسب لأجل موسى وزمن موسى ومدة موسى آية من نوع ما برع فيه قدماء المصريين،وقد برعوا فى السّحر وكان السّحرة عندهم بالآلاف،مهروا فى هذا الأمر،وبلغوا فيه مبلغًا عظيمًا فكانت آية موسى من هذا النوع:﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾[الأعراف:١٠٧،الشعراء:٣٢] ، وحينما رآها فرعون قال:عندنا من هذا كثير،وجمع له السّحرة وأقام مباراة بينهم وبين

(١) روى البخارى فى الشهادات باب من أمر بإنجاز الوعد عن سعيد بن جبير قال : سألنى يهودى من أهل الحيرة : أى الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل ، وفى الباب أحاديث مرفوعة ومرسلة كثيرة انظر ابن كثير التفسير ج ٣ ص ٣٨٦ .

موسى ظنًّا أن هذا لون من السحر ، وكانت المفاجأة أن العصا انقلبت حيّة حقيقية ، تلقف ما صنعوا ، فكانت آية مناسبة .

وأيضًا حينما بعث عيسى كانت عند الرومان نهضة وتطور فى فن الطب ، فجاء عيسى بما يعجز الطب ، وهو إحياء الموتى وإبراء الأكمه بإذن الله ، فمن من الأطباء يستطيع أن يحيى الموتى ؟ ويبرئ الأكمه والأبرص ، لا أحد يستطيع ذلك ولا أحد يستطيع أن يجعل من الطين طيرًا ، فهذا أمر فوق الطب وفوق العلم .

ثم جاء محمد ﷺ ليختم الله به الرسالات ، ويختم بشريعته الشرائع ، وتكون أمته آخر الأمم ، وقد بلغت البشرية أشدّها ورشدها ، جاء فى أمة صناعتها البيان : الشعر والنثر والحكمة ، فاقتضت مشيئة الله تعالى القائمة على الحكمة أن تكون معجزته الكبرى وآيته العظمى آية عقلية أدبية بيانية ، هى القرآن العظيم .

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ مكتوب مما يناسب ماكتبه الله تعالى وقدّره لكل أجل ، وهذا أيضًا داخل فى الرّد على ما طلبه القوم ،وبعض المفسّرين – كالضحّاك والفرّاء – يقولون : إن فى الكلام قلبًا ، فلكل أجل كتاب : أى لكل كتاب أجل ، وقال أحدهما : لكل كتاب أجل ، أى لكل أمر كتبه الله أجل ينتهى عنده ، فإذا قدّر أن يهلك هؤلاء القوم فى وقت معين فلن يتأخروا ولن يستقدموا : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤ ، النحل : ٦١] ولا يمكن أن يهلكوا قبل الأوان. وقال الآخر – الضحّاك : الكتاب هنا كتاب من الكتب المنزلة يناسب الأجل الذى نزل فيه ، فالتوراة تناسب الأجل الذى نزلت فيه ،والإنجيل يناسب الأجل الذى نزل فيه ، والقرآن يناسب المدة والأجل الذى نزل فيه ، ولأن مدة التوراة محدودة وكذا الإنجيل ، فلم يتكفّل الله بحفظهما ، ولأن مدة القرآن هى الزمن إلى أن تقوم الساعة ، فقد تكفّل الله تعالى بحفظه .

ويمكن أن نقول – دون حاجة إلى القول بأن في الكلام قلبًا وتقديمًا وتأخيرًا – لكل أجل كتاب أى لكل مدة الكتاب الذى يناسبها ، وأنسب

الكتب لهذه المدّة الأخيرة من عمر البشرية هوالكتاب المعجز الخالد المحفوظ ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : القرآن .

معنى المحو والإثبات :

﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ ربما سأل سائل : ولماذا تتغير الكتب من أجل إلى أجل ؟ ولماذا تتغير الآيات من وقت إلى وقت ؟ فتكون حسيّة فى بعض الأوقات ، ومعنوية فى بعض الأوقات ؟ ولماذا تتغير الآيات التنزيلية وما تتضمنه من أحكام بالنسخ ؟ ولماذا تتغير الشرائع بأن تنسخ الشريعة شريعة أخرى ؟ولماذا تتغير بعض الأحكام فى شريعة سابقة بأحكام أخرى فى شريعة لاحقة؟ كما قال المسيح ﴿ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران : ٥٠]،ولماذا تتغير الأحكام فى الشريعة الواحدة كما فى شريعة الإسلام حيث دلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: ١٠٦] ، وحيث دلّ عليه أيضًا قوله : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ، قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ١٠١ ، ١٠٢] ؟ فيكون الردّ على هذه التساؤلات : أن التغيير والتبديل بالمحو والإثبات هو صنع الله تبارك وتعالى ، وهو صنع يتعلق بمشيئته عزّ وجلّ اقتضته الحكمة الإلٰهية ، إنه يمحو ويثبت ، والمحو إزالة أثر الشىء والإثبات ضد المحو .

وقد اختلف المفسرون فى المحو والإثبات . ماذا يمحو ؟ وماذا يثبت ؟ .

فهناك من قال : يمحو الأرزاق والآجال .

وهناك من قال : يمحو الآباء ويثبت البنين .

وهناك من قال : يمحو قرونًا ويثبت قرونًا ، يهلك قرنًا وينشىء من بعدهم قرنًا آخرين .

وهناك من قال : يمحو الله تعالى ما يشير إليه قوله : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾[الزمر : ٤٢] ، فهناك أنفس يقبضها حين المنام وهناك أنفس يبقيها .

وهناك من قال : يمحو الذنوب بالتوبة ، ويبقى ذنوباً ليس فيها توبة .

وهناك من قال : المحو يكون فى ديوان الحفظة وصحف الملائكة فى ليلة القدر من كل سنة . وذكر عن بعض السلف من الصحابة من كان يدعو ويقول : « اللهم إن كنت كتبتنى عندك شقيًّا فامح هذا وأثبتنى سعيداً » ، وقد روى هذا عن ابن مسعود وعن عمر ، وعن بعض التابعين ، وروى فى هذا حديث ضعيف (١) .

وهناك من قال : إن المحو والإثبات يتعلق بالأحكام ، والمعنى : أنه ينسخ ما يشاء من الأحكام الكلية أو الجزئية فى شريعته ،ويبقى ما يشاء بلا نسخ .

المراد من (أم الكتاب) :

﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أى الأحكام الأصلية التى لا يعتريها المحو ولا التغيير ، وهى تشبه ما جاء فى سورة آل عمران : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] فأم الكتاب هى معظم الكتاب ، هى آيات الأصول التى تقرر العقائد والحقائق الكونية ،وأصول الدين وأصول الشريعة ، وهى الآيات الواضحات القاطعات الدلالة التى يردّ إليها غيرها من المتشابهات ، فهذه لا تقبل النسخ .

وهناك من قال : إن المحو والإثبات ليس فى الأحكام الشرعية ،ولكن فى الأحكام القدرية ، وهى تشمل الأرزاق والآجال وغيرها ، فيمحو فيها ما يشاء ويثبت ، يعنى : ما فى صحف الملائكة .

﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أى اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه مقادير الخلائق ، وإليه الإشارة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩] ، وفى قوله : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ ،وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١] فهذا الكتاب المبين هو اللوح المحفوظ ، هو أم الكتاب الذى لا تغيير فيه .

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير الجزء الثانى ص ٥١٩ فقد أورد من الأدعية المروية عن الصحابة والأحاديث الكثير .

وذهب بعضهم إلى أن اللوح المحفوظ يمكن أن يتغير ،وأن الذى لا يتغير هو علم الله تبارك وتعالى ، والعلم الأزلىّ لا يتغير بحال ؛ لأن علم الله لو تغير لاستحال العلم جهلا،والعلم صفة تنكشف بها الأشياء على ما هى عليه تماما ، والله سبحانه يعلم الشىء على ما هو عليه ، وعلى ذلك يمكن أن تتغير صحف الملائكة ويمكن أن يتغير ما فى اللوح المحفوظ نفسه ، ولكن علم الله لا يتغير ، فأم الكتاب إذن هى العلم الأزلىّ .

ولكن الذى يستشفه الإنسان من القرآن فى حديثه عن هذا الكتاب : أن الله يسجل فيه ما علم ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَّبِّكَ مَنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءَ ، وَلاَ أَصْغَرَ من ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١] فكأن ما يعلمه الله يسجله فى هذا الكتاب : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] فهذا هو الكتاب ، وهو أصل كل كتاب من كتب أوصحف الملائكة ومن كتب الناس . ولذلك سمّاها (الأمّ) فالأمّ هى الأصل ، التى ترد إليها الأشياء، كما تقول العرب عن كل شىء أصل لغيره : هو أمّ .

﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ والشاهد هنا أن هناك مستويين ، سواء نظرنا إلى عالم الأقدار الكونية ، أم إلى عالم الأحكام الشرعية ، مستوى منهما يقبل المحو والإثبات ، ويقبل التغيير والتبديل ، ومستوى لا يقبله،وهذا موجود فى عالم الأقدار ، ففيه أشياء يمكن أن تتغير وتتبدل ، وأشياء لا تتغير ولا تتحول ، وإذا سأل سائل : كيف يتغير قدر الله ؟ يكون الجواب : يتغير قدر الله بقدر الله ، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عن الشيخ عبد القادر الجيلانى كلمة كانت تعجبه ويرددها يقول : « ليس الرجل من يستسلم للقدر ، إنما الرجل من ينازع القدر بالقدر » ولذا يمكن أن تدفع الأقدار بالأقدار ، فيدفع الإنسان قدر المرض بقدر الدواء ، فكلاهما قدر ، وهذا ما جاء فى الحديث الذى رواه أحمد وغيره : « يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ، وتقاة نتقيها . هل تردّ من قدر الله شيئًا ؟ قال : هى من قدر الله » (١) وكأنهم اعتبروا

---

(١) رواه ابن ماجة في كتاب الطب ص ١ ،وروى الترمذى مثله فى الطب ٢١ ،والقدر ١٢ ، وروى الإمام أحمد قريبا من هذا عن الزهرى عن أبى خزامة عن أبيه قلت : يا رسول الله .. « أرأيت دواء نتداوى به ورقى نسترقى بها وتقى نتقيها ترد من قدر الله شيئًا قال : إنها من قدر الله تبارك وتعالى » المسند ج ٣ ص ٤٢١ ، قال الترمذى : حسن صحيح .

المسببات مقدّرة ، والأسباب غير مقدّرة ! والصحيح أنها من قدر الله ، فيردّ بها قدر الله .

وقد روى عن سيدنا عمر حينما أراد أن يرجع بالصحابة خوفًا عليهم من الطاعون الذى كان منتشرًا بالشام فقال له سيدنا أبو عبيدة بن الجراح : أنفر من قدر الله يا أمير المؤمنين ؟! فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله .

فالأقدار إذن يمكن أن تغير ، وقد تكون هناك أسباب للتغيير ، وقد تكون منها الأعمال الصالحة ، ولذلك ورد أن صلة الرحم تزيد فى العمر ، ويتسبب عنها بسط الرزق (١) .

وورد أنه : لا يزيد فى العمر إلا البرّ ، ولا يردّ القدر إلا الدعاء (٢) ، لأن الدعاء من القدر أيضًا ، وهو سبب من الأسباب ، فحينما تأخذ حذرك ، أو تتحصن من الوباء ، أو تبتعد عن أسباب الهلاك ، فأنت بهذا تفّر من قدر الله إلى قدر الله ، وتتحصن من قدر الله بقدر الله ، وحينما تدعو الله فأنت بذلك تردّ بالدّعاء – الذى هو من قدر الله – قدر الله ، ولعل هذه كانت فكرة من دعا من الصحابة – عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وغيرهما – فقال : اللهم إن كنت كتبت على شقوة أو ذنبًا فامحه فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أمّ الكتاب ، فاجعله سعادة ومغفرة .. » .

ففى مستوى الأقدار يمكن التغيير والتبديل فى هذا الكون ، فالله سبحانه وتعالى يحول الأحوال ، ودوام الحال من المحال ، ويغيّر ما بالأقوام إذا غيّروا

---

(١) إشارة إلى أحاديث كثيرة منها ما رواه البخاري فى الأدب باب من بسط له فى الرزق بصلة الرحم ، وفى البيوع أيضًا ، ومسلم فى البر ص ٢٠ ، ٢١ ، والإمام أحمد فى المسند ، ولفظ البخارى عن أبى هريرة : « من سرّه أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره فليصل رحمه » وقريب من هذا لفظه عن أنس بن مالك رضى الله عنهم أجمعين .

(٢) إشارة إلى الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده ج ٥ ص ٢٧٧ ، والذى رواه الترمذى فى كتاب القدر ص ٦ ورواه ابن ماجة في المقدمة ص ١٠ ، ولفظ الإمام أحمد عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يردّ القدر إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البرّ » ..

ما بأنفسهم ويديل الناس بعضهم من بعض: ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] و ﴿ يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ [النور : ٤٤] ويخفض ويرفع ، ويعطى ويمنع ، ويعزّ ويذل ، ويؤتى الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، وفى هذا الجو يكون التغيير ويكون فى الأعراض ، أما الجوهر فهو ثابت .

ومن القضايا الكبرى التى نتحدث فيها فى عصرنا قضية الثبات والتطور ، ما الذى يثبت ؟ وما الذى يتطور ؟ سواء فى الكون أم فى الإنسان والحياة ، أم فى الشرائع والأحكام ، هناك قدر ثابت وقدر متغير ، هناك محو وإثبات ، ولكن هناك أمّ الكتاب ، فالمحو والإثبات واضح فى العالم من حولنا ، تتغير الأشياء ، بلاد تعمر وبلاد تخرب ، بحيرات تنشأ وأخرى تزول ، والبحر يأكل من اليابسة ، واليابسة تردم البحر ، والأرض تزرع وتخضّر ، أو تبور وتتصحّر ، ولكن النظام الكونى ثابت بسننه التى لا تجد فيها تبديلاً ، ولا تجد فيها تحويلاً ، وبنواميسه الثابتة .

والإنسان نفسه يتغير فيه الكثير ، يتغير – فرداً – من الصبا إلى الشباب ، ومن الكهولة إلى الشيخوخة ، ويتحول من الصحة إلى المرض ، ويتغير – جماعة – من العصر الحجرى إلى العصر الحديدى إلى عصر الصناعة إلى عصر الذرة ، ومن الإنسان الذى كان يركب الحمار إلى الإنسان الذى يركب سفينة الفضاء ، ورغم هذا التغير فى عالم الأفكار عند الإنسان ،وفى عالم الأشياء من حوله ، إلا أن جوهر الإنسان ثابت كما هو ، باعتباره كائنًا مفكرًا مريداً مختاراً مكلفًا مسؤولاً ، وباعتباره يحمل الخير والشر منذ قابيل وهابيل والأسرة الأولي التى قتل فيها الإنسان أخاه الإنسان إلى اليوم .

والأحكام أيضًا يشملها التغير والثبات،ففى الشريعة الإسلامية هناك أشياء قابلة للتغير وأخرى ثابتة ، فأما المتغير فهو ما نقول فيه : إنه يتغيّر بتغيّر الزمان والمكان والإنسان كالفتوى التى تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان والعرف والحال ، وأما الثابت الذى لا يتغيّر فهو الأحكام القطعيات التى أشارت إليها الآية : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [آل عمران : ٧] فهذه لا تغيير فيها ولا

محو ولا إثبات ، وما قلناه هذا هو الحكمة أو القاعدة العامة التى يمكن أن نستنبطها من هذه الآية الكـريمة : ﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ .

ثم يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ وكأنما أراد الله سبحانه وتعالى هنا أن يثبت رسوله ﷺ ويطمئن قلبه فقد كان عليه الصلاة والسلام حريصاً كل الحرص على هـداية قومـه ، وعـلى أن يستجيبوا له ، كما جـاء فى القرآن : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] ، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] ، وهذا الحرص جعله يشقى ويتعب كما جاء فى سورة طه : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ [طه : ٢] ، فأراد الله سبحانه وتعالى هنا أن يقول له : اطمئن فلا عليك أن يستجيبوا لك ، إنما عليـك شىء واحد هو البلاغ وإيصال الرسالة إليهم ، وإنهاء كلمة الله تعالى إلى هؤلاء .

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ يعنى لا تحتفل باستجابتهم أو عدم استجابتهم فإن ما نرينك – والإراءة هنا إراءة بصرية ، ونُرى فعل مضارع من أرى وهو متعدى من الفعل رأى ، ورأى – كما نعلم – من رأى البصرية ورأي العلمية ورأى الحُلمية – بعض الذى نعدهم من الإهلاك ونصرك عليهم والانتقام منهم ، وهذا بعض ما وعُدوا وليس كلّه ، ومن رحمة الله عزّ وجلّ أنه لا ينفذ كل ما يعد – من الوعيد – وكلمة وعد فى القرآن تأتى للخير وتأتى للشرّ ، والوعد الخبر عن خير مضمون ، والوعيد الخبر عن شرٍّ مضمون ، وكلمة وعد ويعد تشمل الأمرين فى القرآن ولا نجد فيه أوعد ، وبعضهم قال : إن وعد للخير وأوعد للشرّ كما قال الشاعر :

وإنى إذا أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

ولكن فى القرآن الكريم وعد ، والوعد يأتى للأمرين . ومن ذلك ﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الحج : ٧٢] وتقـدم فى هذه

السورة : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ ووعد الله هنا بالهلاك ، وفى مواضـــع أخرى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[يونس : ٤٨ ، الأنبياء : ٣٨ ، النمل : ٧١ ، سبأ : ٢٩ ، يس : ٤٨ ، الملك : ٢٥] . وفى القرآن وعـد للخير : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الفتح:٢٩]، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [التوبة : ٧٢] ، ولعل قوله ﴿ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾إشارة إلى أن بعض هذا سيتحقق ويراه النبىﷺ ، وفي قصة مؤمن آل فرعـون : ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ [غافر : ٢٨] فبعض ما يعد الله من العقاب . وعقابه شديد – ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود : ١٠٢] كاف للعاقل أن يرتدع ، و ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ قبل وفاتك ، أو نتوفينك قبل أن يصيبهم بعض الذى وعدناهم ، وفى الآية قال : ﴿ نَعِدُهُمْ ﴾ ولم يقل : وعدناهم ؛ لأن الوعد يتكرر ويتجدد فهو إنذار وراء إنذار ، فإن ما نرينك أو نتوفينك فلا تحتفل بهذا الأمر ، فليس عليك هداهم وليست عليك استجابتهم ، وما هذا مما كُلّفت به ، إنما الذى كلفك الله إياه هو البلاغ ، والبلاغ المبين ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ ﴾ [المائدة : ٩٩] الذى يصل إلى العقول ويقنعها ، ويصل إلى القلوب ، أما هداية القلوب إلى الإسلام ، وتطهيرها من موانع الإيمان ، كالكبر والحسد وحبّ الدنيا والتقليد الأعمى وغير ذلك ، فهذا ما عليك« وعلينا » ـ وليس عليك كما يفيد تقديم الجار والمجرور هذا – الحساب،ومؤاخذتهم على موقفهم منك ونكولهم عن اتباعك وإعراضهم عن دعوتك بتعنتهم واقتراحهم الآيات بلا سبب وبلا مسوّغ .

فالحساب على الله تعالى كما قال : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ * إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ العَذَابَ الأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾[الغاشية : ٢١ : ٢٦] ، فأدّ ما عليك بالبلاغ وقد أديّت الأمانة ، وبلّغت الرسالة ، ولم تقصر فلا عليك بعد ذلك واترك الأمر إلينا ندبره كيف شئنا فليس أفضل من تدبيرنا .

* * *

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِه ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ، يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ، قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٤١ : ٤٣] .

نقص الأرض من أطرافها وكيف يكون ؟ :

هؤلاء المتعنتون الذين لم يكفهم كتاب الله يتلى عليهم ، ويقترحون عليك آية بعد آية ، ومرة بعد مرّة : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ، هؤلاء ألم يروا بأس الله تعالى فيما حولهم ؟ ألم يروا صنع الله فى هذا الكون حيث ينقص الأرض من أطرافها ؟ ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ .

جاء عن بعض المفسرين :أن المراد بنقص الأرض من أطرافها أن الله سبحانه وتعالى يفتح على المسلمين من أرض الكفار،فتنتقص لحساب الإسلام،وهذا يصح لو كانت هذه السورة مدنية، أما وقد رجحنا من أول الأمر أن السورة مكية تدل على ذلك عدة دلائل،فهذا التفسير لا يستقيم،ويؤكد هذا أيضاً أنه جاء فى سورة الأنبياء المكية هذا المعنى:﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاَءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ، أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٤] ولكن بعض المفسرين يخرج من هذا المأزق فيقول : السّورة مكية إلا هذه الآية : وهذا ليس معقولاً أن تكون السّورة مكية وتنتزع منها آية ، ويقال : هى مدنية ، ولم يدل على ذلك نقل صحيح .

والصحيح فى معنى الآية : أن الله سبحانه وتعالى يديل الدول بين الناس فيأخذ من هذه الدولة لتلك الدولة ، فتصغر الدول الكبيرة ، وتضيق الدول الواسعة ، وتضعف الدول القوية : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠) فالدهر قُلِّب يوم لك ويوم عليك .

فمعنى ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِن أَطْرَافِهَا ﴾ أو لم ينظروا

إلى ما حولهم ؟ أو لم يعلموا ما حدث للقرون من قبلهم ، وللأمم من قبلهم ؟ لم يدم حال دولة من الدول مهما عظمت ومهما اتسعت ، فكم من دولة عظيمة دالت ، وكم من أمة عظيمة سقطت ، لحساب أمة أخرى ، وهكذا . فهذا هو معنى الآية الصحيح .

وليس معناها أن الله يضيق الكوكب الأرضى بصورة عامة كما جاء عن بعض السلف : لو كانت الأرض تضيق لضاق عليك بيتك،ولضاق عليك حُشّك !

وليس معناها أيضًا ما ذكره بعض المعاصرين المحدثين ممن يبالغون فيما يسمونه « التفسير العلمى للقرآن » أو « الإعجاز العلمى للقرآن » قال : إن الآية تشير إلى حقيقة جغرافية معروفة ، وهى أن الأرض غير كاملة التكوير ، وهذا تكلف ، فقد وردت الآية بصيغة المضارع فى فعل النقص ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا ﴾ وهو يفيد التجدد والتكرار ، فالعملية مستمرة ، ولو كان المراد أن الأرض ناقصة الأطراف والتكوير لقال : نقصناها . وانتهت ، ولكن هذا من الاعتساف فى التأويل بحيث يراد أن يتفق القرآن مع النظريات العلمية .

ونحن نقرّ أنه يمكن استخدام العلم فى فهم القرآن الكريم ، وتفسير بعض الآيات بشروط معينة : منها : ألا نعتسف فى التفسير ، فتكون أولاً النظرية العلمية حقيقة مقررة ، وليست مجرد فرض أو نظرية مختلف فيها ، وأن تحتمل ألفاظ الآية وعباراتها هذا التأويل دون تكلّف ولا تعسف[1] .

حاكمية الله سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ هو صاحب هذا الكون ينقص من طرف هذه الدولة لحساب دولة أخرى ، ويعز ويذل ، ويؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، وهذا حكمه عزّ وجلّ يحكم لا معقب لحكمه أى لا رادّ لحكمه ، وليس هناك من يعقب عليه أو ينقص حكمه ، قد يأتى من يحكم من البشر ويأتى أيضًا من يعقّب على حكمه ، وفى المحاكم محاكم ابتدائية تحكم ، ومحاكم استئنافية قد تؤيد الحكم وقد لا تؤيده ، ومحاكم للنقض تنقض الحكم أو تردّه إلى ما كان ، إلى آخر ما يكون مع البشر فى أحوالهم ، أما والحكم لله فلا معقب لحكمه ، ومن يعقّب على حكم الله ؟ أيعقب المخلوق على الخالق ؟ لا يمكن أن يكون هذا .

---

(١) انظر : موقفنا من التفسير العلمى فى كتابنا : كيف نتعامل مع القرآن العظيم ؟

والحكم هنا – كما يبدو من سياق الآية – هو الحكم الكونىّ ، فالله سبحانه وتعالى له الحاكمية ، والحاكمية نوعان : حاكمية كونية ، وحاكمية شرعية ﴿ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] فالحاكمية الكونية تتصل بالخلق ، والحاكمية الشرعية تتصل بالأمر ، وكثيراً ما يراد هذا وذاك ﴿ لَه الْحُكْمُ ، وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠ ، ٨٨] أى الحكم الكونى ، إنه هو الذى يتصرف فى الكون كما يشاء:﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس : ٨٢] ﴿ هُوَ الَّذى يُحْيى وَيُميتُ ، فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [غافر : ٦٨] وهو الذى يقضى فى الكون ما يشاء ، كما قال سيدنا يعقوب لأبنائه وهو يوجههم الاَّ يدخلوا من باب واحد قال : ﴿ وَمَا أُغْنى عَنكُمْ مِّنَ اللهِ من شَىْءٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْه تَوَكَّلْتُ ، وَعَلَيْه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٧] والمقصود هنا الحكم الكونى فإذا أراد الله أن يصيبهم بأذى فعل ، وإذا أراد أن يحميهم حماهم .

وأحياناً يراد بالحكم : الحكم الشرعى الأمرى التكليفى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فيهَا حُكْمُ اللهِ ﴾ [المائدة : ٤٣] فالحكم هنا شرعى أمرى تكليفى ، وكما قال الله تعالى فى سورة الممتحنة : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَاللهُ عَليمٌ حَكيمٌ ﴾ [الممتحنة : ١٠] وكما قال عز وجل : ﴿ أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغى حَكَماً وَهُوَ الَّذى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ [الأنعام : ١١٤] فهو الذى يشرّع ويأمر وينهى ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهلِيَّة يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ منَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] .

الله سبحانه وتعالى هو صاحب(الحاكمية الكونية القدرية)،و (الحاكمية الشرعية الأمرية) ، وهذا أمر متفق عليه بين جميع المسلمين .

ومما يؤسف له أن بعض الناس فى عصرنا يقولون : إن مسألة (الحاكمية) هذه اخترعها وابتكرها الأستاذ أبو الأعلى المودودى رحمه الله ، وأخذها عنه الشهيد سيد قطب رحمه الله ، وأن الفكر الإسلامى لم يكن يعرف هذه الحاكمية التى قال بها هذان الرجلان العظيمان ، إلا عند الخوارج .

وهذا للأسف يدل على جهل القائلين،فلو أنهم رجعوا إلى كتب أصول

الفقه ، وعلم أصول الفقه هو العلم الذى يحدد مناهج الاستنباط ، استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها،ويحدد القواعد والأسس لهذا الاستنباط، مما فيه نصّ ومما لا نصّ فيه . لو أنهم رجعوا إلى أصول الفقه ، لوجدوا أن الأصوليين يبحثون فى مقدمات هذا العلم،ومن ضمنها مقدمات عن الحكم الشرعى،ما هو الحكم ؟ وما هو المحكوم به ؟ ومن هو الحاكم ؟ وقد اتفقوا على أن الحاكم هو الله ، حتى إن الرسول نفسه ﷺ ليس هو الحاكم وإنما هو مبلغ عن الله ، فالله هو الحاكم ، وهو الآمر الناهى الذى يأمر وينهى ، ويحلل ويحرم ، ويشرع لعباده ما يشاء .

والحاكمية الأمرية متفرعة على الحاكمية الكونية ، فما دام الله هو المالك لهذا الكون ، وهو المدبر لأمره ، وهو صاحب هذا الوجود والمتصرف فيه وحده ، فمن حقه أن يأمر وينهى بما يشاء وإن كان لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته ، وبما فيه مصلحة الخلق ، عرفوا ذلك أم لم يعرفوا ، فإنه سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة مطيع ولا تضرّه معصية عاص .

﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ سريع المجازاة على ما تفعلونه مع الرسول الذى أرسلته إليكم ، وإذا أمهلكم أو تركككم فترة من الزمن ، فلا تظنوا ذلك غفلة منه وعجزاً منه ، إنه يجازى فى أى وقت وفى أسرعه ، فهو سريع الحساب كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] فيكن أن يأتى حسابه وجزاؤه بأسرع مما تتصورون ﴿ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل : ٧٧] وهذا فى الدنيا والآخرة ، ويمكن أن يؤخر الحساب إلى الآخرة ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] كما يمكن أن يعجل بالجزاء فى الدنيا ، ويأتيكم هذا الجزاء بغتة من حيث لا تشعرون ، فتكونون فى أمر وهو يدبّر لكم أمراً آخر ، وتمكرون والله يمكر ، وهو خير الماكرين .

مكر الله ومكر الناس :

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ فإذا مكرتم بمحمد فلستم أول الماكرين ، فقد مكر الذين من قبلكم بأنبيائهم ورسلهم ، ودبّروا لهم المكايد ، ونصبوا لهم المصايد ، وكانت العاقبة أن المرسلين والأنبياء نجوا هم

والذين آمنوا معهم ، وأن الماكرين الكافرين هم الذين وقعوا في الشرك ونزلت بهم المهالك ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[النحل : ٢٦] والمكر هو إبطال قصد الغير خفية دون أن يشعر ، أو قصد إيصال المكروه بالغير من حيث لا يشعر وهو نوعان : المكر الحسن ، والمكر السيء ، فإذا تحرّيت بمكرك فعل الجميل تريد أن توصّل خيراً إلى من يستحقه ، أو توصّل أذى إلى من يستحقه ، كظالم بغية ردّه عن ظلمه ، فهذا مكر محمود ، وهذا من مكر الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤ ، الأنفال : ٣٠] .

وهناك مكر مذموم وهو الذى أشار إليه القرآن بقوله : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٣] وهو مكر الكفرة ، كما مكرت ثمود بصالح ، ولكن الله تعالى خيب مكرهم قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل : ٥٠ ، ٥١] ، وكما مكر خصوم عيسى المسيح به : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] ، وكما مكر المشركون برسول الله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] ومكر الكفرة مكر قديم ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يثبت رسوله ﷺ ، ويهون عليه مكر هؤلاء وما يكيدون وما يمكرون ، فقد مكر الذين من قبلهم ومن هم أشد قوة منهم وآثاراً فى الأرض ، ولكن الله تعالى خيّب مكرهم ، وساءت عاقبتهم ، فهو سبحانه أسرع مكراً وأقوى مكراً ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق : ١٥ : ١٧] .

﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ هذه الصيغة تعنى أن المكر كلّه لله ، وكأن مكرهم غير معتبر ، أو هو معدوم ، إذ مكر المخلوق لا يكون شيئًا إلى جانب مكر الخالق ، الذى يعلم كل شيء ، ويعلم ما تكنه الصدور ، وأنت لكى تحبط مكر من يمكر بك لابد أن تعرف ماذا يصنع ؟ وماذا يدبر ؟ والدول الآن تحاول أن تعرف ما يصنع غيرها ، لكى تبطل مكر أعدائها ، وتقيم لذلك الأجهزة ،

وتنفق عليها الملايين ، لتعرف فيم يفكرون ، وماذا يصنعون ، حتى تقطع الطريق عليهم ، فما بالك بالخالق سبحانه وتعالي الذى يعلم ماذا يصنع عباده – الذين خلقهم – وفيم يفكّرون ، والذى يعلم السرّ ، ويعلم ما هو أخفى من السرّ ؟ إنه هو القادر على أن يبطل كيد الكائدين،ومكر الماكرين، فمكرهم لا يعتبر شيئًا ، يجوار مكره عز وجل ٠

﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ وهذا نوع من التعليل والتفسير لقوله : ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ أى لأنه يعلم ما تكسب كل نفس ، وهذا يشمل الكسب الحسّى والكسب المعنوى ، أى ما يظهر على الجوارح ، وما يستكن في الضمائر ، فالله يعلمه كلّه ، وهذا يعنى أن الله سبحانه وتعالى بقدرته يبطل مكر هؤلاء ولا يجعل له أثرًا ، وقد قلنا فيما سبق إن كلمة (كسب) تعنى العمل لاجتلاب منفعة أو دفع مضرة وتستعمل فى القرآن للخير وللشرّ ، وفى الحسنات وفى السيئات : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ﴾ [الأنعام : ٧٠] ، ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة : ٨٢] ، ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ،﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ [البقرة : ٢٠٢] وهؤلاء الذين دعوا فى مواقف الحج ، وغير هذا من مواضع « كسب » ٠

فالكسب إذن يشمل كل ما يعمله الناس من طاعات ومعاص ، ومن خير ومن شرّ ، وإن كان الأقرب هنا ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أن يكون كسب السيئات ؛ لأنه جاء فى معرض التهديد والوعيد ٠

﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ وفى بعض القراءات السبعية : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (١) والكافر هنا اسم جنس ، والمعنى :

---

(١) قرأ عبد الله بن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائى « وسيعلم الكفار » جمعًا ، وقرأها نافع ، وابن كثير وأبو عمرو « وسيعلم الكافر » ٠

وسيعلم جنس الكافر لمن عقبى الدار ، وهذا تهديد من ناحية ، ووعد لرسول الله ﷺ وللمؤمنين من ناحية أخرى ، فهى تحمل الوعد والوعيد .

وقوله : ﴿ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [أى لمن سوف تكون العاقبة ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨ ، القصص : ٨٣] وللمؤمنين ، وسواء فسرنا عقبى الدار بما يكون فى الدنيا من نصر وتمكين ، أم فسرناها بما يكون فى الآخرة كما سبق فى السورة ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ وعقبى الدار الجنة والنعيم ، فسيعلم الكفار لمن عقبى الدار كما جاء في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٥] ، وقد جرت سنة الله عزّ وجلّ أن العاقبة للمتقين ، وأن العاقبة للمؤمنين فى الدنيا وفى الآخرة .

ففى الدنيا ينصر الله الرسل والمؤمنين كما قال عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] وكما قال : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] ، وفى الآخرة عاقبة الدار ليست لهؤلاء الكافرين المكذبين المعاندين المتعنتين ، وإنما هى لمن يستحقها ، للرسول ﷺ ولمن آمن به .

ثم ختمت السورة بمقولة من مقولات الذين كفروا الذين تكرر ذكرهم فى السورة : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وقد تكرر مرتين ، ثم جاء هذا القول أيضًا ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ أى يقولون : لست رسولاً من عند الله ، إنما أنت مُدَّعٍ ، وقد وصفهم الله سبحانه وتعالى ﴿ بِالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؛ ليسجل عليهم الكفر الذى غطى على عقولهم فلم يعودوا يميزون بين الحق والباطل ولا بين الصواب والخطأ .

تبجح المشركين بتكذيب محمد :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ هنا تعود السورة لما بدأت فى أولها ﴿ الر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ، وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهى تدور حول حقّية القرآن الكريم ، وحول إثبات رسالة محمد

ﷺ ، وأنه لا يحتاج إلى الآيات التى يطلبها هؤلاء المتعنتون ، ويقترحها أولئك المعاندون ، والتعبير بقوله : ﴿ وَيَقُولُ ﴾ ولم يقل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ دليل على أن هذا القول يتجدد منهم ويتكرر .

شهادة الله لمحمد كافية :

﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ قل يا محمد وردّ عليهم ، وأقم عليهم الحجة ، وكما قلنا ونقول : إن « قل » فى القرآن تدل على أن محمداً ﷺ مكلف مأمور، يلقّى الكتاب من سلطة أعلى منه ، تأمره وتنهاه ، و لذلك فقد وردت كلمة « قل » فى القرآن الكريم كلّه ثلاثمائة واثنتين وثلاثين مرّة ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ .

إذا كان من يدعى دعوة معينة ويريد أن يثبت هذه الدعوة ، يحتاج إلى شهادة شاهد يشهد له بصحة الدعوة وبالصدق منها ، فهل تكتفون بالله شهيداً بينى وبينكم ؟ ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ فشهادة الله تكفي عن كل شهادة .

وقد تكرر هذا فى القرآن ، ففى سورة الأحقاف : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِى مِنَ اللهِ شَيْئاً ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأحقاف : ٨] .

وفى سورة العنكبوت بعد أن رد الله تعالى على المتعنتين من الكافرين الذين كانوا يطلبون من محمد آيات حسية ، ومعجزات كونية قال : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ، يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [العنكبوت:٥٢] .

وفى سورة الإسراء : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ [الإسراء : ٩٦] .

وفى سورة النساء : ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ، أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾ [النساء : ١٦٦] .

فليس هناك شهادة أعلى ولا أنصع ولا أقوى ولا أدلّ من شهادة الله عزّ وجلّ على ما يشهد عليه .

كيف تكون شهادة الله لرسوله ؟ :

وربما يسأل سائل : كيف تكون شهادة الله ؟ وما معنى شهادة الله لمحمد ﷺ ؟

معنى شهادة الله لمحمد : أنه أظهر الآيات والحجج الدّالة على صدقه فيما يبلغ عن ربه ، وهى شهادة له ﷺ أنه رسول من ربه ، وأبلغ هذه الآيات ، وأعلى هذه المعجزات : آية القرآن الكريم ، فهو الآية الكبرى والمعجزة العظمى الباقية المستمرة التى لا تشبه آيات النبيين ، إذ قد انتهت آياتهم بمجرد وقوعها ، ولولا أن القرآن حدثنا عنها ما عرفناها .

وهناك آيات أخرى ومعجزات لرسول الله ﷺ مثل آية انشقاق القمر ،ومثل الإسراء والمعراج ، وهذه فى مكة المكرمة ، أما معظم الآيات فقد حدثت فى العهد المدنى ، وهذه الآيات خوطب بها الكفار والمشركون . وهذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أن الله سبحانه وتعالى خلّى بين الرسول ﷺ وبين الدعوة ، فإذا كان كاذبًا فكيف تركه الله عزّ وجلّ يضلّ النّاس ويفسد فى الأرض ؟! ، وكيف فتح له القلوب لتهتدى به وتتحمس له ، وتنضم إلى قافلته ؟! الله سبحانه وتعالى لا يترك الضال حتى يقصمه . يقول عز وجل : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ :٤٧] وهذا لو تقول بعض الأقاويل ، فكيف لو افتعل الرسالة كلها من أصلها ؟! وقال: إنه رسول الله وليس برسول ؟! يقول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٤] وهو سبحانه لا يهدى ظالما ، فكيف بأظلم الناس ، وهو الذى يفترى على الله الكذب ؟! وهل يترك الله هذا الأظلم ويخلّى بينه وبين الناس يضلّهم ؟! لا يتصور هذا ولا يكون ؛ لأن ترك الضال المضّل ليس من سنن الله أبداً وهو يقول:﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾ [طه: ٦١ -] فالمفترى لابد أن يخيب ولا يفلح :﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام:٢١، ١٣٥ ، يوسف : ٢٣ ، القصص : ٣٧] ، ﴿ وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس : ٨٢] كما قال موسى عليه السلام : ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ

السِّـــحْرُ ، إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٨١] ، وإذن فمجرد التخلية بين محمد وبين الناس تعتبر شهادة من الله عزّ وجلّ له ، فأما أن يؤيّده بالمعجزات ، والآيات البيّنات ، وأعظمها القرآن ، فهذه شهادة بعد شهادة ، وهى شهادة عملية : من ناحية المعجزات وفتح القلوب والعقول له ، وهى شهادة قولية : من ناحية أن القرآن كلام الله عزّ وجلّ .

ومثل ذلك تأييده ونصره على أعدائه رغم كثرتهم وقوتهم ، وقلة أنصاره وضعفهم المادى ، ففتح الله له فتحاً مبينا ، ونصره نصراً عزيزاً .

ولذلك قال بعض الغربيين : ماذا تريد ممن يدّعى لك أنه بنّاء أكثر من أن يبنى لك بناء من السعة بحيث يسع الملايين ، ومن المتانة بحيث يعيش مئات السنين – ويقصد بهذا:الإسلام – ويقول : إن الباطل لا يمكن أن يستمر ، فمثل الباطل كمثل ورق البنكنوت الزائف ، قد يمرّ من يد إلى يدين أو أكثر ، ولكنه لا يلبث أن يضبط ويعرف أنه زائف ، وأما الحق فهو الذى يستمر ، ويقول : إن دين محمد يتبعه مئات الملايين من الناس ، وأهله أشد الخلق تحمساً له من أى أصحاب دين فى الأرض . فإذن هذا الدين لا يقوم على أكاذيب ، ولكنه يقوم على حقائق .

وهذا المعنى قاله (توماس كارليل) صاحب كتاب (الأبطال) الذى قال فى محمد : إنه (بطل فى صورة رسول) .

والنبوة هداية ، فكيف لكاذب أن يهدى الناس ، وأن يبصّر الحائرين ، ويعلّم الجاهلين ، ويأخذ بأيدى الناس إلى الله ، ويحشرهم فى ساحته ؟! .

فهذا كله يعتبر من شهادة الله عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ .

لو كان محمد كاذبا لقطع الله وتينه :

وفى سورة الحاقة يقول تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ *وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُمْ مَنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٣٨ : ٤٧] .

فى هذه الآيات أقسم الله على صدق نبيه وأن القرآن كلام رب العالمين بلغه رسوله الكريم محمد ﷺ – أقسم على ذلك بالأشياء كلها وبالكون كله : ما يبصر منه وهو القليل ،وما لا يبصر وهو الكثير .

قال ابن القيم (١) : « وهذا القَسَم أعم قسم وقع فى القرآن ؛ فإنه يعم العلويات والسفليات ، والدنيا والآخرة ، وما يرى وما لا يرى ، ويدخل فى ذلك الملائكة كلهم والجن والإنس .. وكل مخلوق ، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته .. ففى ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله ، وأن ما جاء به هو من عند الله ، وهو كلامه لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن » .

« ومن تأمل المخلوقات ما يراه وما لا يراه ، واعتبر ما جاء الرسول بها ، ونقل فكرته فى مجارى الخلق والأمر ، ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه ، وهو أصدق الكلام وأنه حق ثابت ، كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق .. فكأنه سبحانه يقول : إن القرآن حق كما أن ما تشاهدونه من الخلق وما لا تشاهدونه حق موجود ، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق .. » .

« ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ وهذا رسوله البشرى محمد ﷺ وفى إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل .. ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولاً » .

« ثم بين سبحانه كذب أعدائه وبهتهم فى نسبة كلامه تعالى إلى غيره وأنه لم يتكلم به ، بل قاله من تلقاء نفسه – وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ .. وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ .. ﴾ .

ثم أخبر سبحانه أنه ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وذلك يتضمن أموراً منها :

أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى : لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم ، ويحذرهم ما يضرهم ، بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة .

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن ص ١٧٥ وما بعدها .

فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ، ونسبه إلى ما لا يليق به تعالى ﴿ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون :١١٦] .

« ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله وأنه لم يتقول عليه فيما قاله وأنه لو تقول عليه لما أقره ،ولعاجله بالإهلاك ؛ فإن كمال علمه وقدرته وحكمته يأبى عليه أن يقر-من تقوَّل عليه ، وافترى عليه ، وأضل عباده ، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم ، وأظهر فى الأرض الفساد والجور والكذب ، وخالف الخلق ، فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، وأقدر القادرين ، أن يقره على ذلك ؟ .

بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ، ويظفره بأهل الحق : يسفك دماءهم ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم ، قائلاً : إن الله أمرنى بذلك وأباحه لى ؟ .

بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها ؛ فيصدقه بإقراره ، وبالآيات المستلزمة لصدقه ، التى دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر ، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها . فكل آية على انفرادها مصدقة له ، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها ، ثم يُعجز الخلق عن معارضته ، ثم يصدقه بكلامه وقوله ، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه ، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله .

فمن أعظم المحال ، وأبطل الباطل ، وأبين البهتان ، أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه ، الذى هو شر الخلق على الإطلاق .

فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشرّ خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعًا ، ولا عرف الله ، ولا هذا هو رب العالمين ، ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من عقل وحكمة . ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ، ونادى على جهله » .

وقد ذكر ابن القيم هنا وفى عدد من كتبه مناظرة جرت له فى مصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة قال : فقلت له فى أثناء الكلام :

أنتم بتكذيبكم محمداً ﷺ قد شتمتم الله أعظم شتيمة . فعجب من ذلك وقال : مثلك يقول هذا الكلام ؟ .

فقلت له : اسمع الآن تقريره :

إذا قلتم إن محمداً ملك ظالم قهر الناس بسيفه ، وليس برسول من عند الله وقد أقام ثلاثاً وعشرين سنة يدعى أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافة ويقول : أمرنى الله بكذا ، ونهانى عن كذا وأوحى إلى كذا ، ولم يكن من ذلك شيء . ويقول : إنه أباح لى سبى ذرارى من كذبنى وخالفنى .. ولم يكن من ذلك شيء . وهو يدأب فى تغيير دين الأنبياء . ومعاداة أممهم ونسخ شرائعهم فلا يخلو : إما أن تقولوا : إن الله سبحانه كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه ، أو تقولوا : أنه خفى عنه ولم يعلم به . فإن قلتم : لم يعلم به نسبتموه إلى أقبح الجهل ، وكان من علم ذلك أعلم منه .

وإن قلتم : بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته واطلاعه عليه فلا يخلو : إما أن يكون قادراً على تغييره والأخذ على يديه ومنعه من ذلك أولا؟فإن لم يكن قادراً فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافى للربوبية .

وإن كان قادراً وهو مع ذلك يعزه وينصره ويؤيده ويعليه ويعلى كلمته ، ويجيب دعاءه ، ويمكنه من أعدائه ، ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف ، ولا يقصده أحد بسوء إلا أظفره به ، ولا يدعوه بدعوة إلا استجابها له ، فهذا من أعظم الظلم والسفه الذى لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء ، فضلاً عن رب الأرض والسماء ، فكيف وهو شهد له بإقراره على دعوته وبتأييده وبكلامه . وهذه عندكم شهادة زور وكذب ؟!! .

فلما سمع ذلك اليهودى قال : معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مفترٍ ! بل هو نبى صادق ، من اتبعه أفلح وسعد .

قلت : فمالك لا تدخل فى دينه ؟

قال : إنما بعث للأميين الذين لا كتاب لهم ، وأما نحن فعندنا كتاب نتبعه .

قلت له : غُلبت كل الغلب ، فإنه قد علم الخاص والعام : أنه أخبر أنه

رسول الله إلى جميع الخلق،وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم،وقاتل اليهود والنصارى – وهم أهل الكتاب – وإذا صحت رسالته لزم تصديقه فى كل ما أخبر به . فأمسك اليهودى ولم يحر جواباً » أ . هـ .

هذا هو نصر الله الذى وعد به رسوله محمداً ﷺ وفاضت به سور القرآن ، ونطقت به آياته البينات ، وقد امتلأ قلب محمد إيماناً به،وأملاً فيه ، ولم يتسرب إلى قلبه فى لحظة من اللحظات ذرة من شك فى أن الله ناصره على عدوه ، ومؤيده على مكذبيه ، فهو وعد الله الذى لا يتخلف ، وسنة الله التى لا تتبدل : أن تكون العاقبة لرسله والهلاك لأعدائهم : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ ، فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر : ٤٣] .

وقد مرت بمحمد محن وأزمات تشيب من هولها ناصية الوليد ، وأحاطت به أحداث رهيبة ابتلى فيها المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً وبلغت القلوب الحناجر ، وظن الناس بالله الظنون . ولو لم يكن موقناً كل اليقين بدعوته ، واثقاً كل الثقة بنصرته ، لخارت قواه ، أو ارتاب فؤاده أو – على الأقل – سكت حتى تمر الأزمة ، وتهدأ العاصفة وتنقشع سحابة المحنة . كلا ، إنه كان فى أشد الأوقات حلوكة وظلاماً ، يردد آيات النصر ويعلن أن الله مؤيد كتابه ، ومظهر دينه ، ومهلك عدوه ، وإن أرجى ما يكون النصر إذا استحكمت حلقات الخطوب ، وتراكمت ظلمات الكروب ، وهجم اليأس بعسكره على القلوب .

ألم يقرأ فى آيات كتابه العزيز : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ، مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ، أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] ، ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ، وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠] .

وفى السيرة المحمدية مصداق ما نقول : ففى مكة ظل محمد رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى الله ، ويربى الجيل الأول ، وقاسى هو وصحبه من الإيذاء والتعذيب والصد والمقاطعة ما قاسوا ، حتى أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ، وعاشوا بعد الهجرة فى صراع دامٍ وجهادٍ متصلٍ ، فقد رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وبعد سبع وعشرين غزوة ، وبضع وخمسين سرية ، جاء نصر الله والفتح ،ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ،

وعلت كلمة الله على كلمة الطاغوت ، علام يدل هذا النصر والتأييد والفتح الذى ظفر به محمد ؟ ذلك النصر الذى لم يخل عن اليقين بحصوله فى أحلك الأزمات وأحرج الساعات ؛ ذلك النصر الذى جاءه بعد أن أخرجه قومه من داره واضطهدوه وأتباعه ، وتمالأت عليه الوثنية الفاجرة ، واليهودية الماكرة . علام يدل هذا ؟ وماذا نسميه ؟ .

يدل هذا على أن محمدا الذى أيده الله بنصره وأمده بروح من لدنه رسول من عند الله صدقه الله بهذا النصر كما صدق المرسلين قبله . ونسمى هذا – كما سماه القرآن – شهادة من الله لمحمد بأنه صادق فيما يقول وما يبلغ عنه ، ليس بكاذب ولا ضال ولا غاوٍ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى ﴾ [النجم : ١ : ٤] .

ولو كان محمدا كاذباً فى نبوته مفترياً على ربه ، منتحلا ما ليس له ، ما خلّى الله بينه وبين عباده يضلهم ويغويهم ، ويكذب عليهم ، ويكلفهم ما لم يكلفهم الله به ، فضلا عن أن يؤيده بالآيات البينات ، ويفتح له القلوب ، ويخضع له الرقاب ، ويُمَكّن له فى الأرض ، ويصدقه فى تحديه ، ويحقق له نبوءاته ، ويذلل له العقبات ، ويهيىء لدعوته أسباب الفلاح .

فليس من حكمة الله تعالى أن يترك الكذّابين المفترين عليه ، دون أن يهلكهم أو يفضحهم ،ويبين حقيقة أمرهم على ملأ الناس ، فإن سنة الله أن يحق الحق ويبطل الباطل ، وليس من سنته أبداً أن يبطل الحق ويظهر الباطل . ولهذا ذكر القرآن على لسان موسى حين جاء سحرة فرعون يتحدونه وألقوا حبالهم وعصيهم وسحروا أعين الناس واسترهبوهم ... قال موسى : ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ [يونس : ٨١] وجاء فى القرآن : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِى مِنَ اللهِ شَيْئًا ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأحقاف : ٨] .

ويقول القرآن : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلاَمِ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الصف : ٧] ، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٤] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل : ١١٦] ، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ [طه : ٦١] .

وجاء فى سورة الشورى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ، فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الشورى : ٢٤] .

فمعنى ﴿ فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ : إن يشأ الله يُنْسِكَ القرآن ويقطع عنك الوحى – كما جاء عن المفسر المعروف قتادة – فكان هذا جوابًا لهم ، وتكذيبا لقولهم : إن محمدا كذب على الله ، افترى عليه هذا القرآن . فأجابهم بأحسن جواب ، وهو أن الله تعالى قادر لا يعجزه شيء ، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يمكنه أن يأتى بشيء منه ، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه ، فلا يوصل إلى ما فيه . فيعود المعنى إلى أنه : لو افتراه علىّ لم أمكنه ولم أقره . ومعلوم أن مثل هذا الكلام – الذى هو القرآن – لا يصدر من قلب مختوم عليه ؛ فإن فيه من علوم الأولين والآخرين وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة ، والعلم الذى لا يعلمه إلا الله ، والبيان التَّام ، والجزالة والفصاحة والجلالة ، والإخبار بالغيوب ما لم يمكن مَنْ ختم على قلبه أن يأتى به ولا ببعضه . فلولا أنى أنزلته على قلبه ، ويسرته بلسانه ، لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه (١) .

ولنقرب ذلك إلى الأذهان بمثل نضربه : هب أن رجلا ذهب إلى إقليم من أقاليم مملكة ، وادعى لأهلها أنه مندوب الملك إليهم ، وأنه مفوض من قبله ، ونصب أبدا عليهم . وقد أخذ فعلا يباشر سلطانه يأمر وينهى ويجبى الأموال ، ويقيم العقوبات ، ويخضع الرقاب . والملك قد عرف دعواه ،وعلم بقصته ومع هذا سكت عليه ، وخلى بينه وبين الرعية وكان قادراً بما عنده من عدة وعدد أن يبعث إليه من يزيله عن سلطانه ويبين للناس كذبه وتضليله – إن كان كاذبا مضلاً – ولكنه لم يفعل بل هيأ له كل أسباب النجاح والانتصار ، وأزال من

(١) انظر: التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم ص ١٨٥ .

طريقه كل الموانع ، ومكّنه من أعناق معارضيه ، وبعث له بالمدد بعد المدد . . أفليس هذا دليلا أوضح دليل ، وبرهانا أنصع برهان على صدق هذا الرجل فيما ادعى به على الملك ؟ .

هذا الدليل كاف كل الكفاية فى إثبات النبوة المحمدية لكل من كان يؤمن بالله العلى الكبير ، ويؤمن بهيمنته على الكون ، وحسن تدبيره له ، وسمو حكمته ، وكمال عدله وبره بخلقه .

ومن لم يكن مؤمناً بإله للكون ، فيكفى أن يكون مؤمناً بما فى الكون من سنن عادلة وما للحياة والطبيعة من صدق .

وهذا ما وضّحه الفيلسوف البريطانى كارلايل فى كتابه « الأبطال » حين عقد المحاضرة الثانية من كتابه للبطل فى صورة رسول فاختار بطله « محمداً » صلى الله عليه وسلم .

قال الفيلسوف البريطانى (توماس كارلايل) : « لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدين فى هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمدا خدّاع مزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من هذه الأقوال السخيفة المخجلة ؛ فإن الرسالة التى أبداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون (هم الآن أكثر من ألف مليون من الناس) أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا !! أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر أكذوبة وخدعة ؟! أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبداً . فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة ، كان الأولى بها ألا تخلق » (١) .

وقال الكاتب الفيلسوف الروسى (تولستوى) :

« ومما لا ريب فيه أن النبى محمداً كان من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنسانى خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام ، وتؤثر عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية ، وفتح لها طريق الرقى والمدنية ، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتى قوة ، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام » .

---

(١) الأبطال جـ ١ ص ٤٩ ترجمة محمد السباعى .

وعلل (مونتيه) طعن بعض الغربيين على الرسول بقوله : « كثيراً ما حكمت عليه الأحكام القاسية ، وما ذلك إلا لأنه ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثله ، وأن ما قام به من إصلاح الأخلاق وتطهير المجتمع ، يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للإنسانية ، وقال : لا مجال للشك فى إخلاص الرسول وحماسته » .

وقال جان جاك روسو : « من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ، ولو أنه سمع محمدا يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرفيعة وذاك الصوت المقنع المطرب المؤثر فى شغاف القلوب ، ورآه يؤكد أحكامه بقوة البيان لخرَّ ساجداً على الأرض ،وناداه : أيها النبى رسول الله ، خذ بأيدينا إلى مواقف الشرف والفخار أو جوامع التهلكة والأخطار ، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار » .

من ثمارهم تعرفونهم :

وفى إنجيل (متى) الفصل السابع ١٥ : « احذروا من الأنبياء الكذبة ، الذين يأتوكم بلباس الحملان ، وهم فى الباطن ذئاب خاطفة . من ثمارهم تعرفونهم . هل يجتنى من الشوك عنب ؟ ومن العوسج تين ؟! هكذا كل شجرة صالحة تثمر ثمراً جيدا ، والشجرة الفاسدة تثمر ثمراً رديئا ، لا تستطيع شجرة صالحة أن تثمر ثمراً رديئًا،ولا شجرة فاسدة أن تثمر ثمراً جيداً . كل شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار.فمن ثمارهم تعرفونهم (١٥ : ٢٠) .

هذا كلام تلوح عليه أنوار النبوة ، ويجدر بكل مسيحى ، بل بكل عاقل أن يتأمل فيه :

فهو – أولاً – لم يغلق باب النبوة من بعده ، ولم يقل إنه خاتم النبيين فكل من ادعى النبوة بعده فهو كاذب دجَّال . كلا ، وإنما حذر فقط من المتنبين الكذابين .

ثم هو – ثانيا – قد وضع فى أيدي أتباعه بل فى يدى كل عاقل ميزانًا سليمًا يمكن أن يعرف به الأدعياء الدجالين من الأنبياء الصادقين : ومن ثمارهم تعرفونهم » .

فما أشبه نفس الإنسان بالشجرة ، وما أشبه أقواله وأعماله وأخلاقه بالثمرة !! فإذا أردنا أن نعرف حقيقة صاحب دعوة، ونكشف عن دخيلة نفسه ، فلننظر بعين البصيرة فيما جاء به من أقوال ، وما قام به من أعمال ، وما تركه للناس من آثار ؟! .

وهذا المعنى الكبير قد أثبته القرآن وأكده فى غير موضع منه معلنًا أن الكاذب على الله لا يفلح ، وأن الله لا يهديه؛لأنه تعالى لا يهدى القوم الظالمين ولا يصلح عمل المفسدين،ولا يهدى من هو مسرف كذَّاب،وليس من سنته تعالى أن يؤيد الكذب على الصدق ، وينصر الباطل على الحق ، بل من سنته أن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، وأن يخيب المفترى ، ويفضح المنافق الدجال : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾[الأنفال:٨] .

وقد يروج الكذب فترة من الزمن ويملى الله للكاذب حينا من الدهر . ثم سرعان ما يأخذه الله أخذه الأليم الشديد ، فيكشف ستره ، ويبيد من الأرض ذكره ، ويجعله سلفًا ومثلا للآخرين .

نقول : هذا المعنى الكبير قد أثبتته نصوص كثيرة من أسفار العهد الجديد المقدسة عند النصارى ، وأسفار العهد القديم المقدسة عند الطائفتين : النصارى واليهود .

ففى الزبور الأول من العهد القديم آية ٧ : « لأن الرب يعرف طريق الصديقين ، وطريق المنافقين تهلك » .

وفى الزبور الخامس ٦ : « وتهلك كل الذين يتكلمون بالكذب ، الرجل السافك الدماء والفاسق يرذله الرب » .

وفى الزبور الرابع والثلاثين ١٦ : « وجه الرب على الذين يعجلون المساوىء ليبيد من الأرض ذكرهم » .

وفى الزبور السابع والثلاثين ١٧ : « لأن سواعدالخطاة تكسر ، والرب يعضد الصديقين » .

٣٠ : « الخطاة فيهلكون ، وأعداء الرب جميعًا – إذ يمجدون ويرتفعون – يبيدون وكالدخان يفنون » .

فلو لم يكن محمد من الصديقين ، وكان من الخطاة وأعداء الرب المفترين

عليه ، لأنجزالله فيه هذا الوعيد ، وأعمل فيه هذه السنن الإلَهية الصارمة ، فأهلك طريقه وطمسها وجعله مرذولا مدحوراً ، وأباد من الأرض ذكره ، وكسر سواعده ، وأفناه كالدخان !! .

ولما كان أمر محمد بعكس هذا كله ، وإنما هو الفتح المبين والنصر العزيز .

فَتْحُ القلوب بالإيمان ، وكثرة الأتباع ، وفتح البلدان والقرى وخضوع المستكبرين ، وإنما هو النصر العزيز : النصر على الوثنية ، وعلى المجوسية ، وعلى اليهودية ، وعلى النصرانية ، وإنما هو الذكر المرفوع تصلى آلاف الألسنة بل ملايينها على محمد حبيبها وشفيعها وهاديها ، فى الصلوات والأذان والإقامة وسائر الأذكار والدعوات :

ألم تر أن الله خلد ذكره إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد ؟
وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد !!

قال الشيخ العلامة رحمة الله الهندى فى كتابه القيم (إظهار الحق) : إنه عليه السلام ادّعى بين قوم لا كتاب لهم ولا حكمة فيهم : أنى بعثت من عند الله بالكتاب المنير والحكمة الباهرة ، لأنوّر العالم بالإيمان والعمل الصالح ، وانتصب – مع ضعفه وفقره ، وقلة أعوانه وأنصاره – مخُالفًا لجميع أهل الأرض : آحادهم وأوساطهم ، وسلاطينهم وجبابرتهم ، فضلل آراءهم ، وسفَّه أحلامهم ، وأبطل مللهم ، وهدم دولهم ، وظهر دينه على الأديان فى مدة قليلة ، شرقًا وغربًا ، وزاد على مر الأعصار والأزمان ، ولم يقدر الأعداء ، مع كثرة عَدَدهم وعُددهم ، وشدة شوكتهم وشكيمتهم وفرط تعصبهم وحميتهم ، وبدلهم غاية جهدهم ، فى إطفاء نور دينه ، وطمس آثار مذهبه ، فهل يكون ذلك إلا بعون إلهى ، وتأييد سماوى ؟! .

ولنعم ما قال عمالائيل معلّم اليهود لهم فى حق الحواريين من أصحاب عيسى (الباب الخامس من كتاب الأعمال) : « يأيها الرجال الإسرائيليون : احترزوا لأنفسكم من جهة هؤلاء الناس (الحواريين) فيما أنتم مزمعون أن تفعلوا ؛ لأنه قبل هذه الأيام قام ثوداس قائلاً عن نفسه : إنه شيء . الذى التصق به عدد من الرجال نحو أربعمائة . الذى قتل وجميع الذين انقادوا إليه تبددوا وصاروا لا شيء .

بعد هذا قام يهوذا الجليلى في أيام الاكتتاب وأزاغ وراءه شعبا غفيراً .

فذاك أيضاً هلك ، وجميع الذين انقادوا إليه تشتتوا . والآن أقول لكم : تنحوا عن هؤلاء الناس واتركوهم ؛ لأنه إن كان هذا الرأى ، وهذا العمل من الناس فسوف ينتقض . وإن كان من الله فلا تقدرون أن تنقضوه ؛ لئلا توجدوا محاربين لله أيضاً ٣٦ – ٣٩ » . أ . هـ .

وهذا الذى قاله المعلم اليهودى حق ناصع أيدته وقائع التاريخ . فكم من مدّعين دجالين هلكوا وباد ذكرهم ، وتشتتت أتباعهم ، وذهبت دعوتهم ، كأن لم تكن شيئاً مذكورا .

وقد أدرك بعض مشركى قريش هذه الحقيقة بما بقى فى فطرتهم من نور الله، ففى إحدى معارك المشركين مع الرسول جاء مندوب قبيلة عربية (غفار) إلى قريش يعرض عليهم المساعدة العسكرية بالسلاح والرجال لحرب محمد وأصحابه فقال أحد المشركين العقلاء كلمة عاقلة ما أشبهها بكلمة (عمالائيل) لليهود : قال : أما إن كنا نحارب محمداً وأصحابه فإنهم قلة وإنا عليهم لقادرون ، وإن كنا نحارب الله – كما يزعم محمد – فما لأحد بحرب الله من طاقة » .

وقد بان للقوم أنهم لم يكونوا يحاربون محمداً وأتباعه القليلين ، وإنما كانوا يحاربون الله جل جلاله ، فحقت عليهم الغلبة والهزيمة . وهذا ما جعل فرسان قريش ودهاتها يهاجرون باختيارهم إلى محمد ، معلنين إسلامهم ، وانضمامهم بقلوبهم وسيوفهم للدين الجديد . فهذا خالد بن الوليد وهذا عمرو ابن العاص .

النبى معجزة كاملة وبرهان على نبوته :

ولقد كان جلال الدين الرومى الصوفى الكبير يرى أن النبى – أى نبى – غير محتاج إلى دلائل خارجية ، أو براهين كلامية ، أو معجزات حسية ، لتدل على صدق نبوته ، وصحة رسالته من عند الله . ويقول :

« إن كل شىء فى النبى يدل على أنه نبى مرسل من عند الله . إنه يكون فى سيرته وخلقه وشمائله ومخايله معجزة كاملة ، وبرهانا صادقاً على نبوته ، ولذلك لما وقع بصر عبد الله بن سلام – عالم اليهود – على وجه الرسول هتف قائلا : والله ليس هذا بوجه كذاب .

« إن كل من رزق العقل السليم ، والطبع المستقيم ، شعر بالإعجاز فى صوت النبى ووجهه ، ولم يحتج بعد ذلك إلى دليل وبرهان » .

ثم يقرر أن بين النبى وضمير أمته مناسبة خفية ، وصلة روحية ؛ فلا يتكلم

النبى بشىء إلا وأسرع ضمير المستقيمين الأصحاء من أمته إلى تصديقه وإجابته ، ويهتز لسماعه ويطرب ؛ لأنه صوت برىء ، لا يتطرق إليه الشك ، وصوت غريب لم يطرق الآذان من قبل ، وليس بينه وبين أصوات الخلق ، وما ألفه العالم من أدب وفلسفة وعلم مشابهة ، يقول :

« إذا رفع النبى صوته بالأذان ودعا إلى الله سجدت له أرواح أمته وطربت ، لأن هذا النداء لم تسمعه الآذان من قبل ، فلا يعلو هذا الصوت الغريب إلا وأسرع السعداء إلى إجابته قائلين : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ [آل عمران : ١٩٣] .

ويقول : « إن المؤمن ليس بحاجة إلى دليل خارجى على صدق النبى إذا كان صحيح المزاج ، مستقيم الطبع ، إن دليله فى نفس المستمع . وعلى ذلك يقوم نظام الحياة . فهل إذا دعوت عطشان إلى الماء وقلت له : إن فى هذا القدح ماء ، هل يقول لك : أين الدليل ؟ وكيف أومن بدعوتك وأصدق كلامك ؟ وهل إذا دعت الأم الحنون طفلها الرضيع ليرتضع من ثديها قال الطفل : هات الدليل يا أمى حتى أروى نفسى وأشبعها ؟ .

إن وجود العطش فى نفس العطشان ، ووجود الجوع فى الرضيع ، ووجود الإخلاص فى الداعى ، لكفيل بالتصديق ، مغن عن كل دليل ! » .

« إن المعجزات لا توجب الإيمان ؛ لأنها لقهر العدو ، وإسكات الخصم ، وإعجاز العنيد ! إن الذى يولد الإيمان فى القلب ويخضع الإنسان للمحبة والطاعة هو المجانسة والمناسبة الروحية . إن المعجزة تقهر ، والمقهور لا ينشرح صدره ولا ينفتح قلبه » (١) .

شهادة من عنده علم الكتاب برسالة محمد :

﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ تكفى شهادة الله فوق كل شهادة ولكنه أضاف إليها شهادة : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ والمفسرون يقولون : إن الكتاب هنا هو التوراة والإنجيل ، وقد ذكرنا معانى الكتاب الكثيرة فى أول السورة ، ويقولون أيضا : بل هو التوراة فقط ، ومعنى ذلك الاستشهاد بمن

---

(١) عن كتاب (رجال الفكر والدعوة فى الإسلام) للشيخ أبى الحسن الندوى ، الجزء الأول .

يشهد لرسالتك يا محمد من أهل الكتاب الذين قرأوا الكتب السابقة وقرأوا فيها البشارة بك ﴿ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ، يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧]،﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] فهؤلاء المنصفون يشهدون بذلك .

وبعض المفسرين حدّد هؤلاء مثل من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى ،وتميم الدّارى ، والجارود ، والنجاشى وغيرهم .

وبعضهم قال : نزلت هذه الآية فى عبد الله بن سلام فقط ، روى الترمذي حديثًا عن عبد الله بن سلام قال : نزلت فى آيتان من كتاب الله ، آية الرعد – هذه – وآية الأحقاف : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٠] (١) .

ولكن الشعبى قال : لم يرد فى عبد الله بن سلام شىء ، وقال سعيد بن جبير : كيف يقال هذا وهذه السورة مكية وليست مدنية ؟! .

وبعضهم استثنى هذه الآية وحدها وقال : إنها مدنية .

ولذلك رجّح بعضهم أن يكون الكتاب هو القرآن ، ويكون المراد : يشهد لك من يعلم القرآن ومن يتفقّه فيه ، ومن كانت له بصيرة بمعرفة القرآن ، من أمثال السابقين الأولين من الصحابة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد وطلحة والزبير وابن عوف وسعيد بن زيد وابن مسعود، وغيرهم ، وكل من له بصر وفهم وعلم بالقرآن يعلم أن هذا الكلام ليس من كلامك،ولكنه من كلام اللهعزّ وجلّ .

وهذا ما نشهده إلى اليوم ، أن كلّ نصّ يدلّ على من قاله ، فشعر المتنبى يدلّ عليه ، وشعر حسّان بن ثابت يدلّ عليه ، وهكذا ، والقرآن الكريم يدلّ على أن محمداً ليس هو قائله ، وكلام محمد ﷺ الذى روى عنه من غير

---

(١) انظر ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) الجزء الثانى ص ٥٢١ والجزء الرابع ص ١٥٦ فقد ذكر هذه الروايات بشىء من التفصيل وذكر أحاديث عن مالك والبخارى ومسلم وغيرهم فى موضوع عبد الله بن سلام رضى الله عنه .

القرآن – رغم بلاغته وروعة بيـــانه – مختــلف تماما عن كلام القرآن ، وواضح تمامًا أنه غير القرآن الكريم ، حتى إنه حين يَستَشهد بآية من القرآن يتضح الفارق بجلاء بين الآية وبين كلامه ﷺ ، وإذن ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ أى علم القرآن .

وهناك أقوال أخرى . فبعضهم قال : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ هو جبريل ، والكتاب هو اللوح المحفوظ .

وبعضهم يقول : هو الله الذى يعلم كل شىء ، وهنا لا معنى لعطف الصفة ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ على الذات : ﴿ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ فهذا غير مستحسن لغة .

ولا مانع عندى أن يراد بمن عنده علم الكتاب : من آمن من أهل التوراة والإنجيل وشهدوا بصدق محمد ﷺ ، لما عندهم من علم الكتاب .. وأهل العلم بالقرآن كذلك ، فهم أعرف الناس بصدق محمد ﷺ .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

* * *